

حول إبداع أبي تمام

الفصل الأول: فضاءات النص.

الفصل الثاني: المصادر والمعطيات.

الفصل الثالث: حول الأصدقاء والمعارضات.

obeikandi.com

مدخل مبدئى

قيل إن أبا تمام عالم لكثرة ما نهل من فروع الثقافة التى أخذ نفسه بها، وكان أبرزها الثقافة التاريخية، بأبعادها المختلفة من مصادر العصور الأولى على تواليها، من الجاهلية إلى العباسية، وقد اشتد حرصه على اصطناع ذلك المزج الدقيق بين ثقافته الفنية الراقية المعقدة، وبين حسه التاريخى فى قصيدته المشهورة التى ذاع صيتها، وكثر حولها الحوار، وطال الجدل، وتناولها الدرس الأدبى شرحا وتفسيرا، وتحليلا، وتقويما، وربما بقى أماننا منها تبين هذا الجانب التوثيقى المهم الذى يمكن أن نفيده من تعدد قراءة مثل هذا النمط من الإبداع، بما يمكن أن يرد إلى المدحة العربية بعضا من اعتبارها، لاسيما حين يرقى الشعر ليصحح فيه الواقع التاريخى، أو - على الأقل - يتسق معه، إن لم يضيف إليه ما يكمل مساره الطبيعى، فى ركاب حركة التطور المعرفى والفنى بقياسات حركة التاريخ وبنية المجتمعات.

ولم يغفل التاريخ هنا تفاصيل الواقعة التى صورها أبو تمام فى مدحته الذائعة، التى استطاع من خلالها أن يضيف إلى هذا التاريخ بعدا متميزا من واقع رؤيته الخاصة، وحسه الانفعالى الخاص والعام معا، حيث ينظر من خلالها إلى أبعاد تلك المعركة، فكانت نتائجه التى صاغها عبر كثير من (الحكم) التى انتشرت فيها، وحتى كان لقصيدته دورها المتميز فى تأكيد طبائع ذلك الواقع التاريخى الذى يحكى ما حدث من إغارة الروم، بقيادة إمبراطورهم (تيوفيل) على بلدة تدعى " زبطرة "، عاش فيها المسلمون فى عهد الخليفة المعتصم بالله، فجاء الجيش (البيزنطى) الذى قهر أهلها حين ساقهم إلى القسطنطينية، ثم أحرق المدينة كلها، ويرى هذا الخبر الخليفة العباسى فى جملته، ثم جاءت بعض تفاصيله الحادة تحمل نبأ المرأة العربية المسلمة التى أهانها الغزاة وعذبوها، حتى صاحت وهى فى طريقها إلى الأسر "

وامعتصماه"، فما إن بلغتته استغاثتها، حتى لى الخليفة نداءها، فجمع جنده، ومضى إلى "عمورية" - قلعة الروم الحصينة - بعد أن نبهه قواده إلى أنها أمانع بلاد الروم، وأنه لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام، وهى أشرف عند الروم من القسطنطينية.

وعلى هذا النحو كانت حوادث (زبطرة)، وكان صوت (المرأة) دافعا لغزو "عمورية" على يد الخليفة العربى المسلم، وكانت تفاصيل تلك الأحداث داعية للشاعر العربى لكى يرتفع صوته الفنى، مستعينا بمصادر ثقافته التاريخية، ومضيفا من رؤيته الخاصة على مجمل ما صورته، حين أنشد المعتصم بالله قائلا فى البائية :

السيف أصدق إنباء من الكتب	فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى	متونهن جلاء الشك والريب
والعلم فى شهب الأرماع لامعة	بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
أين الرواية ؟ بل أين النجوم؟ وما	صاغوه من زخرف فيها ومن كذب؟
تخرصا وأحاديثا ملفقة	ليست بنوع إذا عدت ولا غرب!
عجائبا زعموا الأيام مجفلة	عنهن فى صفر الأصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة	إذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب
وصيروا الأبرج العليا مرتبة	ما كان منقلبا أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهى غافلة	ما دار فى فلك منها فى قطب
لو بينت قط أمرا قبل موقعه	لم يخف ما حل بالأوثان والصلب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به	نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له	وتبرز الأرض فى أثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت	عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بنى الإسلام فى صعد	والمشركين ودار الشرك فى صعب

أم لهم لو رجوا أن تفتدى جعلوا
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها
من عهد إسكندر، أو قبل ذلك قد
بكر فما افترعتها كف حادثة
حتى إذا مخض الله السنين لها
أتتهم الكربة السوداء سادرة
جری لها الفأل نحسا يوم (أنقرة)
لما رأت أختها بالأمس قد خربت
كم بين حيطانها من فارس بطل
بسنة السيف والخطى من دمه
لقد تركت أمير المؤمنين بها
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى
حتى كأن جلايب الدجى رغبت
ضوء من النار، والظلماء عاكفة
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت
تصرح الدهر تصریح الغمام لها
لم تطلع الشمس منهم يوم ذاك على
ما ربع مية معمورا يطيف به
ولا الحدود وقد أدمين من خجل
سماجة غنيت منا العيون بها
وحسن منقلب تبدو عواقبه

فداءها كل أم برة وأب
كسرى، وصدت صدودا عن أبى
شابت نواصى الليالى وهى لم تشب
ولا ترقى إليها همة النوب
مخض البخيلة كانت زبدة الحقب
منها، وكان اسمها فراجة الكرب
إذ غودرت وحشة الساحات والرحب
كان الخراب لها أعدى من الجرب
قانى الذوائب من آنى دم سرب
لا سنة الدين والإسلام مختضب
للنار يوما ذليل الصخر والخشب
يشله وسطها صبح من اللهب
عن لونها، أو كأن الشمس لم تغب
وظلمة من دخان فى ضحى شحب
والشمس واجبة من ذا ولم تجب
عن يوم هيجاء منها طاهر جنب
بان بأهل ولم تغرب على عزب
غيلان أبهى ربا من ربيعها الخرب
أشهى إلى ناظرى من خدها الترب
عن كل حسن بدا أو منظر عجب
جاءت بشاشته عن سوء منقلب

لم يعلم الكفر كم أعصر كمنت
تدبير معتمم بالله منتقم
ومطعم النصر لم تكهم أسنته
لم يغز قوما ولم ينهض إلى بلد
لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا
رمى بك الله برجيهما فهدمها
من بعد ما أشبوها واثقين بها
وقال ذو أمرهم : لا مرتع صدر
أمانيا سلبتهم نجح هاجسها
إن الحمامين من بيض ومن سمر
ليبت صوتا زيطريا هرقت له
عداك حر الثغور المستضامة عن
أجبتة معلنا بالسيف منصلتا
حتى تركت عمود الشرك منقعرا
لما رأى الحرب رأى العين "توفلس"
غدا يصرف بالأموال جريتها
هيئات زعزعت الأرض الوقور به
لم ينفق الذهب المربى لكثرتة
إن الأسود أسود الغاب همتهما
ولى وقد أجم الخطى منطقته
أخذى قرايينه يوم الردى ومضى

له المنية بين السمر والقضب
لله مرتقب فى الله مرتغب
يوما ولا حجت عن روح محتجب
إلا تقدمه جيش من الرعب
من نفسه وحدها فى جحفل لجب
ولو رمى بك غير الله لم تصب
والله فتاح باب المعقل الأشب
للسارحين وليس الورد من كذب
ظبى السيوف وأطراف القنا السلب
دلوا الحياتين من ماء ومن عشب
كأس الكرى ورضاب الخرد العرب
برد الثغور وعن سلسالها الحصب
ولو أجبت بغير السيف لم تجب
ولم تعرج على الأوتاد والطنب
والحرب مشتقة المعنى من الحرب
فعزه البحر ذو التيار والحدب
عن غزو محتسب لا غزو مكتسب
على الحصى وبه فقر إلى الذهب
يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب
بسكتة تحتها الأحشاء فى صخب
يحت أنجى مطاياها من الهرب

موكلا بيفاع الأرض يشرفه
إن يعد من حرها عدو الظليم فقد
تسعون ألفا كأساد الشرى نضجت
كم نيل تحت سناها من سنى قمر
يا رب حواء لم اجتث دابرهـم
ومعضب رجعت بيض السيوف به
والحرب قائمة فى مأزق لحج
كم كان فى قطع أسباب الرقاب بها
كم أحرزت قضب الهندى مصلته
بيض إذا انتضيت من ججبها رجعت
خليفة الله جازى الله سعيك عن
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها
إن كان بين صروف الدهر من رحم
فبين أيامك اللائى نصرت بها
أبقت بنى الأصفر المراض كاسمهم

من خفة الخوف لا من خفة الطرب
أوسعت جاحمها من كثرة الخطب
جلودهم قبل نضج التين والعنب
وتحت عارضها من عارض شنب
طابت، ولو ضمخت بالمسك لم تطب
حتى الرضى من رداهم ميت الغضب
تجنو الكماة به صعرا على الركب
إلى المخدرة العذراء من سبب
تهتز من قضب تهتز من كذب
أحق بالبيض أبدانا من الحجب
جرثومة الدين والإسلام والحسب
تنال إلا على جسر من التعب
موصولة أو ذمام غير منقضب :
وبين أيام بدر أقرب النسب
صفر الوجوه وجلت أوجه العرب